أزرار وقطع زينة من الذهب كانت تزهو بها ثياب شخصية إبلائية، دفنت في قبر سيد الماعز (1750 - 1700) ق.م، وقد أتلف رشح المياه، الثياب الثمينة التي كانت الشخصية الإبلائية المدفونة ترتديها.

ومع أن الذهب كان الأرفع قيمة بين المعادن، فإن الفضة كانت الأكثر شيوعاً، وكان المعدنان يصنعان حلياً في إبـــلا، وترسل هذه إلى الاسواق القريبة والبعيدة....

ولندلل على كميات الذهب والفضة التي كانت تأتي - أحياناً - إلى إبـــلا ننقل عن نص مسماري خبراً مفاده:

«إن مدينة ماري - تل الحريري - لما احتلتها إبـــلا، فرضت هذه عليها غرامة قيمتها 2193 مينا من الفضة، و 134 و 26 شاقلاً من الذهب».

ومعنى هذا نحو طناً واحداً من الفضة، ونحو ستين كيلوغراماً من الذهب، وبهذه المناسبة فقد دفع (إبلول - ايل) ملك ماري وحده 1100 مينا من الفضة، و 93 مينا من الذهب، فيما دفع شيوخ المدينة ما تبقى [3].

وبهذه المناسبة نشير إلى نظام الأوزان في إبـــلا، فقد اكتشفت غالبية الأوزان في القصر الملكي الذي يعود تاريخه إلى العصر البرونزي القديم، وقام بدراستها البروفيسور - ألفونسوآركي، وقد أبانت تلك الدراسة أن الاوزان في إبـــلا كانت تحدد بالغرام، الوزن الفعلي لوحدة الوزن المسماة آنذاك «المينا» وتعادل المينا الواحدة نحو 470 غراماً. وهذا هو الوزن الفعلي للمينا في اوغاريت خلال الألف الثاني قبل الميلاد.

3 - الفكر العربي، العدد (52) - آب 1988 (ص 110).

كما أمكن تحديد مجموعتين من الأوزان، تعتمد المجموعة الأولى على أساس وحدة الوزن المسماة «المثقال» الذي يعادل 7,75 غراماً، ولما كانت المينا مؤلفة من ستين مثقالاً، فإنها تعادل 470 =(60 × 7,75) غراماً.

وتعتمد المجموعة الثانية على المثقال الذي يزن 9,40 غراماً، وقد أصبح هذا المثقال هو الأساس المتبع في أوغاريت (رأس الشمرا) بعد ذلك. ولما كانت المينا في أوغاريت مؤلفة من خمسين مثقالاً، فإن المينا الاوغاريتية تعادل: 470 = (50 × 9,40) غراماً.

وثمة أوزان منقوشة تشهد على استخدام وحدة الوزن الاناضولية التي يعادل المثقال فيها مقدار 11,45 غراماً، وترتبط الوزنة الأناضولية بكلا وحدتي الوزن آنفتي الذكر.

«تفيد نصوص إبـــلا إلى تقسيم المينا إلى 60 مثقالاً، وهو الوزن المتبع لوزن البضائع التي يتم عقد صفقاتها ضمن حدود امبراطورية إبـــلا.. ومن المعروف أن المثقال الذي يعادل 7,75 غراماً كان معروفاً في بلاد الرافدين وعيلام خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وقد أكدت الكميات الكبيرة من أحجار اللازورد التي تم العثور عليها في إبـــلا، ان هذا المثقال كان يستخدم في العلاقات التجارية القائمة بين إبـــلا والبلاد الواقعة إلى الشرق منها. ولعل المثقال الذي يعادل وزنه 9,40 غراماً، كان مخصصاً لوزن البضائع التي يتم عقد صفقاتها بين إبـــلا ومدن الساحل السوري بالاضافة إلى مصر. وتجدر الاشارة إلى أن المثقال الرافدي الذي يزن 8,75 غراماً لم يكن مستخدماً في إبـــلا آنذاك [4].

لقد كانت علاقات إبـــلا الاقتصادية أوسع بكثير من رقعة سيادتها السياسية، ومكتشفاتها العديدة، تؤكد ذلك، فالمنطقة التي كانت إبـــلا تقيم معها علاقات اقتصادية وتجارية بصفة دائمة ومستمرة.. واسعة الأرجاء ونائية في الشرق، وتشمل وادي الفرات الأوسط، حتى مدينة ماري، الواقعة قرب بلدة البوكمال - حالياً - ثم منطقة وادي الدجلة الأعلى، وعاصمتها مدينة (كاكموم) الوارد اسمها في كثير من النصوص البابلية القديمة، ولكن لم يتم التعرف على موقعها - حتى الآن - ثم بلاد آكاد وشمال بلاد بابل إلى الجنوب من بغداد، حيث يرد في نصوص إبـــلا بكثرة اسم مدينة (كيش) التي كانت من كبريات مدن ذلك الزمان.

كذلك كان لابلا علاقات اقتصادية وتجارية مع المدن التي كانت تقع على الطريق البري الواصل بين إبـــلا والفرات الأوسط، حيث يرد في النصوص المسمارية أسماء مدن كثيرة تقع على هذا الطريق مثل: مدينة الطوب الواقعة في منطقة بحيرة الجبول، ومدينة ايمار (مسكنة/بالس).. كما يرد أسماء يعتقد أنها واقعة في شمال بلاد ما بين النهرين بين الفرات والدجلة الأعلى، مثل: (بورمان)، (جرمو) و (نجر).. كما يرد اسم مدينتين هامتين آشوريتين واقعتين إلى الشرق من نهر الدجلة وهما: مدينة (حمازي) الواقعة إلى الشمال الشرقي من الموصل، ومدينة (جاسور) القريبة من كركوك.

ويؤكد «باولوماتييه» أن نفوذ إبـــلا على المنطقة الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين، كان مقبولاً وطويل الأجل، وذلك لأننا بعد مرور نحو ألف سنة من تاريخ نصوص القصر الملكي في

4 - انظر، ابلا، الصخرة البيضاء، ترجمة الاستاذ قاسم طوير، عن الفونسو أركي - دراسات ابلائية - العدد الرابع، إصدار جامعة روما لعام 1981 (ص 153 - 154).

إبـــلا ، أي في نحو 1500 قبل الميلاد ، اكتشف في منطقة كركوك اسم مدينة كانت تدعى (دور ـ إبـــلا) أي مدينة إبـــلا ، ولعلها كما يعتقد «ماتييه» كانت مستوطنة تجارية يقطنها تجار من أهالي إبـــلا . . ان لم تكن قاعدة إبـــلائية في شرقي بلاد آشور [5] .

• تجارة اللازورد :

يعتبر حجر اللازورد من الأحجار الشبه كريمة ، وتتمتع القطع الثمينة منه بلون أزرق ، تتخلله نقاط ذهبية براقة ، وهذا الحجر لا يتوفر إلا في أماكن معدودة جداً ، وحتى اليوم لا يستخرج إلا في أفغانستان ، وفي منطقة بحيرة بايكال وفي الشيلي ، لكن اللازورد الأفغاني لايزال الأجود نوعية وشكلاً .

إن معظم اللازورد المكتشف في المواقع الاثرية في بلاد الرافدين مصدره أفغانستان ، لكن لم يتم العثور على أية قطعة منه في فلسطين ، كما أنه نادر الوجود في مصر ، حيث كان يجلب من الشرق كما تفيد بذلك الكتابات المصرية القديمة .

وقد عثر المنقبون على قطع لازوردية في أور وماري يعود تاريخها إلى الفترة الواقعة بين 2350 - 2550 قبل الميلاد ، ولم يعثر على قطع أخرى في أي موقع أثري إلى الغرب من ماري . . . . حتى جاءت تنقيبات القصر الملكي في إبـــلا في فترة ازدهارها الأولى 2400 - 2250 قبل الميلاد ، حيث كشف النقاب عن أدلة جديدة للتجارة باللازورد . . . .

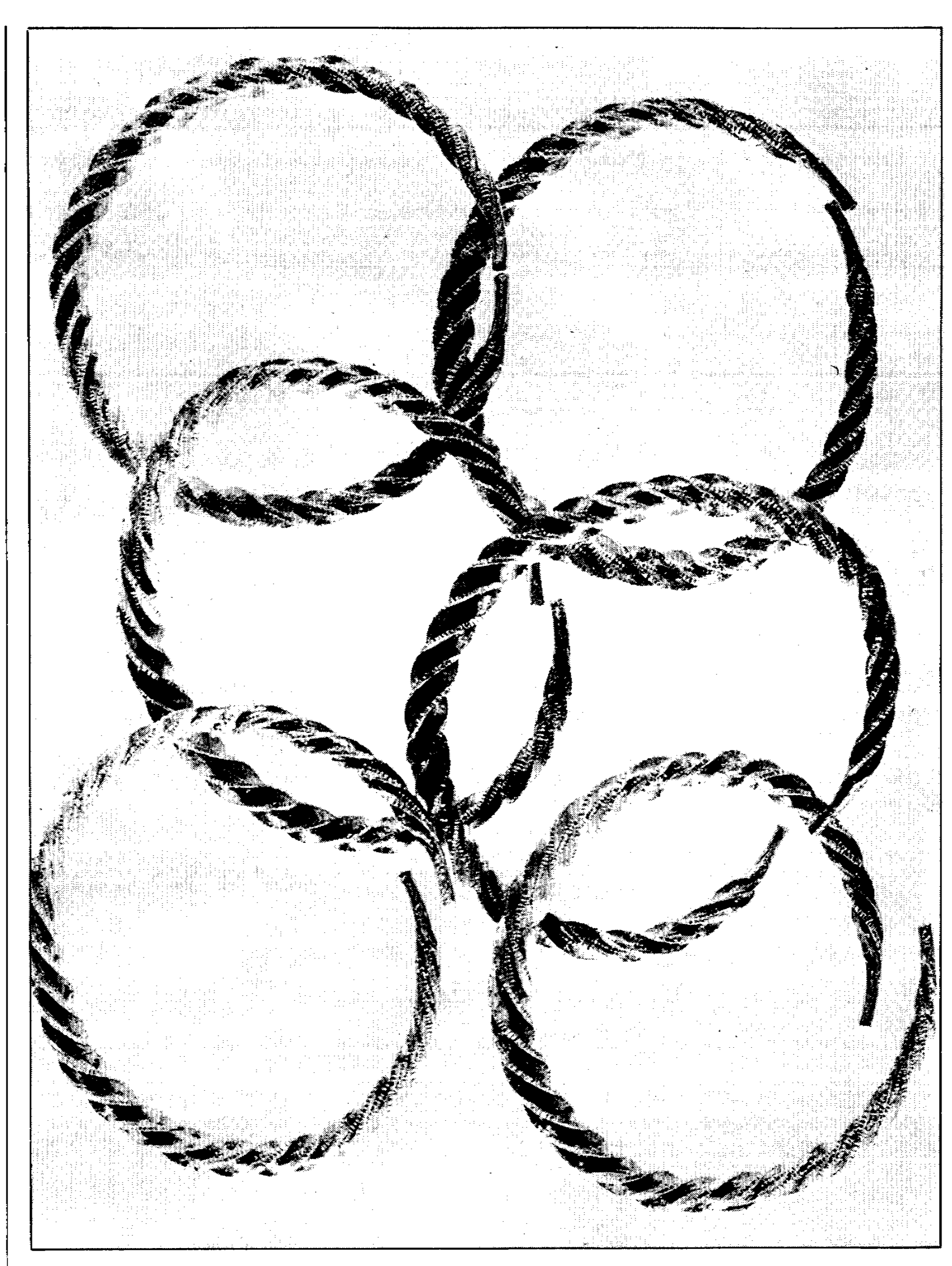
وبالفعل عثرت البعثة الايطالية في باحة الجناح الرسمي للقصر الملكي ، على عدة قطع لخامات اللازورد وقد بلغ الوزن الاجمالي للقطع الخام أكثر من 22 كغ ، ويتألف 30٪ منها من قطع تزن كل واحدة منها ما بين 400 ,600 غراماً . . وكانت معظم القطع مغلفة بقشرة رمادية اللون ، ولعل هذا اللون قد خلفته عملية الاستخلاص . وبالفعل كان يجري في الماضي ، وحتى في الوقت الحاضر اشعال النار في المنجم لاستخلاص اللازورد من فلزاته الصخرية ، وعندما تصبح درجة حرارة الفلزات عالية جداً ، يجري صب الماء البارد عليها ، عندئذٍ تتشقق الفلزات إلى قطع متعددة ، لذلك فإنه من المرجح جداً أن تكون القطع التي عثر عليها المنقبون في قصر إبـــلا من هذا النوع من الكتل الخام ، التي يبلغ وزنها الوسطي نحو 500غرام[6] .

وترجح السيدة بينوك أن تكون تلك القطع الثمينة من اللازورد الخام قد حفظت في الغرف الرسمية للقصر ، بانتظار تسليمها إلى الصناع الفنيين أو إلى أحد التجار المكلفين بالاتجار بها في الخارج . وبالفعل كانت هناك كتل تزن بين 100 - 200 غرام ، وعليها آثار القطع والحز الناجمة ، على ما يبدو ، عن عملية التقطيع الأولي إلى كتل صغيرة ، أكبر بقليل من حجم القطعة الفنية المراد صياغتها من قبل صانع الحلي والمجوهرات ، وبما أن المادة ثمينة وغالية الثمن ، فلا بد أن كان المرء حريصاً على عدم التفريط بأي غرام منها اثناء عملية التقطيع والصقل والصياغة .

على الرغم من أن علماء الآثار لم يعثروا في القصر الملكي بإبـــلا على ما يشير إلى وجود عملية التصنيع كانت تتم داخل القصر ، فقد عثر على عدة قطع من الحلي المصنوعة من اللازورد ، وأبرزها

5 ـ علاقات ابلا الاقتصادية والسياسية ـ باولوماتييه ـ اصدار جامعة روما ـ عام 1983 ، ترجمة الاستاذ قاسم طوير (ص 11 - 13) .

6 ـ تجارة اللازورد ، بقلم فرانسيس بينوك ، عضوة البعثة الأثرية الايطالية العاملة في ابلا ، اصدار جامعة روما عام 1983 ، ترجمة قاسم طوير (ص 36 - 35) . والمحاضرة التي قدمتها الباحثة إلى الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية ـ جامعة حلب (19 - 24) ايلول 1981 .



صناعة الحلي الذهبية كانت من روائع فن الصياغة في إبـــلا ، وهذه نماذج عنها كانت تزين معصم الأميرة التي كانت ترقد في «قبر الأميرة» المكتشف في إبـــلا .

أنواع مختلفة الحجم من الخرز اللازوردي ، والذي كان يشكل ذات يوم طوقاً ثميناً يزين عنق إحدى بنات القصر أو حريمه ، وعثر أيضاً على لوحات خشبية مطعمة ، وقطع أثاث مزينة بأشكال الثيران الملتحية ، وفيها بقايا من اللازورد ، وكانت خلفيات جدران الجناح الرسمي للقصر ، منزلة بفصوص اللازورد . .

إن وجود اللازورد في إبـــلا بهذه الكميات النسبية أثار اهتمام علماء الآثار من عدة نواحٍ وخاصة في مصدره لأنه لم يعثر عليه سابقاً في سورية في الألف الثالث قبل الميلاد ، فمن أين وصل اللازورد إلى إبـــلا ؟! وإلى أين كانت ترسله ؟!

تجيب عن ذلك البروفيسورة فرانسيس بينوك فتقول :

كان معظم اللازورد القديم يستخرج من مناجم (باداخشان) في أفغانستان ، والتحليل الدقيق الذي قمت به مع بعض المختصين أثبت أن اللازورد المكتشف في إبــلا مصدره من هناك . . وتتحدث بعض النصوص المسمارية التي تمكّنا من قراءتها ـ حتى الآن ـ عن أن إبــلا كانت ترسل سبائك الفضة إلى ماري (تل الحريري) مقابل استيراد اللازورد ، وعن ورود شحنات من اللازورد من ماري إلى إبــلا كهدية ، ومن إبــلا إلى كيش في بلاد ما بين النهرين ، مع أنه ليس من السهل تفسير هذه العلاقة الأخيرة .

وفي ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في ذلك الزمان تتصور «بينوك» بشكل عام حالة تجارة اللازورد في إبــلا : فمن المرجح تماماً أن إبــلا كانت تحصل على الفضة من بلاد الاناضول ، بينما لم تجد ماري صعوبة في الحصول على اللازورد من منطقة الدولة الآكادية ، وكانت العلاقات نامية بين إبــلا وماري إلى حد أنه من المعقول أن يكون تبادل اللازورد والفضة بينهما بنسبة واحد إلى واحد ، رغم القيمة العالية والنادرة للازورد بالقياس إلى معدن الفضة . . وهناك ما يشير إلى أن تجار إبــلا قد قاموا بنقل هذه المادة الثمينة إلى المناطق الغربية باتجاه سواحل بلاد الشام ، ومن هناك كانت تشحن إلى مصر حيث يشتد الطلب على هذه المادة النادرة ، وكان يبادل في مصر بالأواني الحجرية التي كانت تشهد بصناعتها ، وقد عثر المنقبون في إبــلا على بقايا من تلك الأواني المصنوعة من حجر الديوريت ومن حجر الالباتر ، وكانت تحمل أسماء فراعنة مصر مثل خفرع وبيبي الأول[7] .

7 ـ المصدر السابق . (ص 39) .

. علاقات إبـلا مع مصر :

لقد عثر في تنقيبات إبــلا ، على دلائل أثرية مادية ، تبرهن على وجود علاقات بين مصر وامبراطورية إبــلا . . . . من هذه الآثار تلك القطع المبعثرة هنا وهناك في أرضيات القصر الملكي (ج) المصنوعة من حجر الألباتر ومن حجر الديوريت ، وكلا المادتين لم تعرف إلا في بلاد مصر ، وقد تمكن علماء الآثار من تجميع بعض تلك القطع الحجرية المحطمة مثل أغطية الأواني والشمعدانات النادرة .

تلك القطع والأواني الحجرية ، جعلت البعثة الأثرية الايطالية تعيد حساباتها بخصوص علاقات إبــلا التجارية والدولية ، خاصة وأن أجزاء الشمعدانات كانت تحمل كتابات هيروغليفية مصرية ، تؤلف اسم ولقب الفرعون المصري الشهير «خفرع» سليل الأسرة الرابعة ، وباني الاهرام الثاني في منطقة الجيزة الذي يحمل اسمه . وهناك أيضاً قطعة بشكل غطاء لآنية اسطوانية مصنوعة من حجر الألباتر تحمل لقب الملك «بيبي الأول» وهو الملك الثالث في السلالة المصرية السادسة ، وكان حكمه أطول حكم في التاريخ المصري القديم . . . .

هذه المعطيات دفعت علماء الآثار ـ كما قلنا ـ إلى البحث جدياً عن جذور العلاقات بين امبراطورية إبــلا وبلاد مصر ، وقد ثبت أن هذه العلاقات تعود إلى عصور ما قبل السلالات ، وإلى عصر السلالات الأولى ، وقد توفرت الأدلة الاضافية على ذلك من خلال بعض المكتشفات

خارطة توضح بعض علاقات إبــلا السياسية والاقتصادية مع بلاد مابين النهرين .

الأثرية التي تمت في بعض الحفريات في جنوب فلسطين ، حيث تم العثور على حطام أوانٍ مصنوعة من حجر الألباتر ، لكنها لا تحمل أية كتابة ، وعلى حطام أوانٍ فخارية مشفوعة بنقوش هيروغليفية ، تؤلف أسماء عدد من الفراعنة ، وقد استمرت تلك العلاقات ، وامتدت خلال فترة السلالات القديمة نحو الشمال ، بحيث انها تركزت في ميناء جبيل على الساحل السوري ، حيث كشفت التنقيبات الأثرية في هذا الموقع عن العديد من القطع الأثرية المشفوعة بأسماء معظم الفراعنة الذين حكموا في الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي مقدمتهم الفرعون «خاسي خيمو» الذي كان آخر ملوك الأسرة الثانية في مصر[8] .

8 ـ المصدر السابق ، بقلم غابرييلا ماتييه سكاندوني ، عضوة البعثة الاثرية الايطالية العاملة في ابلا ، (ص 25) .

وفي تحليلها لأسباب التركيز المصري على ميناء جبيل دون غيره من موانىء الساحل السوري ، تقول البروفيسورة «غابرييلا ماتييه» : إن جبيل كانت الميناء الذي تأتي منه المواد الخام الأساسية لمصر مثل أخشاب جبل لبنان ، والصمغ المستخرج من أشجار الجبال نفسها ، اضافة إلى منتجات أخرى في بلاد الشام الداخلية ، والتي كانت تصل إلى ميناء جبيل بطريق القوافل البرية . .

كان المصريون يحتاجون إلى الاخشاب في البناء والتعمير ، وفي صنع توابيت موتاهم ، أما الصمغ فكان مادة أساسية في تحنيط الجثة ، وقد أكدت التحاليل الكيماوية الحديثة وجود عناصر صمغية خشبية في الجثث المحنطة في عصر السلالات القديمة في مصر ، فضلاً عن وجود نص كتابي يعود تاريخه إلى مطلع عصر السلالات الوسطى ، يشكو فيه كاتبه ، من السفن التي لم تتمكن من الابحار في اتجاه الساحل السوري لجلب الزيوت اللازمة لتحنيط الموتى .

وتتابع غابرييلا تحليلها : ويبدو أنه كان في جبيل في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد ، مكتب لمندوب دائم عن الفرعون المصري ، وهذا يفسر لنا أسباب العرى الوثيقة التي كانت تربط جبيل مع

صدفة من الخليج العربي، اكتشفت في مواقع التنقيب في إبـلا.

مصر . . . . ولكن بماذا نفسر سبب وجود الأواني المصرية داخل القصر الملكي في إبـلا . . . . هذه المدينة التي تعتبر أبعد نقطة في الشمال ، وفي الشرق وصلت إليها تحف مصرية يعود تاريخها إلى عصر السلالات القديمة ؟!

الجواب عن ذلك يمكن في ثلاثة افتراضات وضعتها «غابرييلا ماتييه» ولكنها لا تبت في أيهم الأقرب إلى الحقيقة :

يعتمد الافتراض الأول احتمال وجود روابط مباشرة بين بلاط إبـلا والبلاط المصري ، ونستغرب أن يكون ملوك إبـلا قد قايضوا تلك الأواني الحجرية النادرة ، بقطع من اللازورد ، ذلك الحجر المفقود في مصر والمرغوب جداً في صناعة الحلي ، ومن الممكن أن تكون مثل هذه البضاعة تصل إلى البلاط المصري من سورية الشمالية بطريق القوافل أو بطريق البحر ، انطلاقاً من الميناء الذي جعله ملك إبـلا الميناء الرئيسي على ساحل البحر المتوسط ، حينذاك ، ومن الممكن أن يكون ذلك الميناء (أوغاريت) التي يرد ذكرها كثيراً في قائمة الاسماء الجغرافية في نصوص إبـلا .

ـ الافتراض الثاني يقوم على أساس أن إبـلا جلبت تلك الأواني المصرية من ميناء جبيل على الساحل السوري ، وبالفعل عثر المنقبون الآثاريون في موقع جبيل على عدد مناسب من الأواني الحجرية المشفوعة بأسماء فراعنة السلالة القديمة في مصر ، بحيث أصبح من المؤكد أن مصر كانت تصدر مثل هذا النوع من الأواني إلى موانىء بلاد الشام على ساحل المتوسط ، ولابد أن كانت جبيل بصفتها ميناء خطير الشأن ، تحتكر الحركة التجارية لبلاد الشام الداخلية ، وفي رحاب أسواقها كانت تتم المقايضة بين البضائع المستوردة من مصر ، والبضائع المراد تصديرها إلى مصر .

بيد أنه يصعب الأخذ كلياً بهذه الفرضية ، لأن اسم جبيل لا يرد ذكره في أي نص من نصوص إبـلا ـ حتى الآن ـ.

ـ الافتراض الثالث يقوم على أساس أن مدينة هامة لها روابط مع بلدان أخرى ، سقطت بأيدي قوات إبـلا ، وكانت تلك الأواني جزءاً من الغنائم . وهذا أضعف الافتراضات[9] . . . .

على كل حال الأعمال الأثرية لاتزال قائمة في إبـلا على قدم وساق ، ونرجو أن تقدم لنا المكتشفات القادمة ، الدلائل المادية التي نستطيع من خلالها أن نرجح كفة على كفة أخرى . . . .

. علاقات إبـلا الدولية :

من خلال الكشوف الاثرية ، التي تطرقنا إلى كثير من محتوياتها في الأبحاث الماضية ، نستطيع القول بثقة تامة أن إبـلا كانت عاصمة سياسية وحضارية لامبراطورية سورية ، تمتد رقعتها الجغرافية على مساحة واسعة ، تقع بين نهر الفرات شرقاً ، وجبال الساحل السوري على البحر المتوسط غرباً ، ومن منطقة قطنة (تل المشرفة قرب حمص) جنوباً ، حتى جبال الأمانوس وطوروس شمالاً . . . .

إن النصوص المسمارية التي اكتشفت في القصر الملكي (ج) تطرقت إلى ذكر أعداد كثيرة من أسماء المدن والقرى والمناطق التي كانت تابعة لامبراطورية إبـلا ، وقد تمكن علماء الآثار من التعرف على بعض منها بين التلال الأثرية الكثيرة المنتشرة في تلك البقاع ، مع العلم أنه من النادر جداً أن تتناقل الأجيال اسم المدينة أو القرية على مرّ اربعة آلاف وخمسمائة سنة تقريباً ، ومن تلك الأسماء : مورك وصوران قرب حماه ، ونيارس شمال بلدة سراقب في محافظة ادلب . كما يرد في النصوص المسمارية أيضاً اسم (دوجان) وهو قريب في لفظه من اسم (تل طوقان) الهام جداً ، والواقع في منطقة (أبو الظهور) شرقي إبـلا ، والذي قامت البعثة الأثرية الايطالية ببعض الأعمال التنقيبية فيه .

كما ترد في نصوص إبـلا أسماء ملوك الكثير من المدن ، مثل ملوك حماة وتوبا وايمار واورشو ، ومن المحتمل جداً أن هؤلاء الملوك كانوا خاضعين للعاصمة إبـلا ، وربما كان بعضهم ولاة من أصل إبـلائي ، كما حدث في مدن هامة ونائية مثل ماري (تل الحريري) قرب بلدة البوكمال حالياً .

وهناك ما يشير إلى أن نفوذ إبـلا السياسي ، قد امتد إلى ما وراء نهر الفرات . . ذلك لأن هناك عدة مدن يرد ذكرها في نصوص إبـلا ، كانت تقع فيما وراء نهر الفرات مثل مدينة (ايرتا) ومدينة (حرّان) . . كما كانت تربط إبـلا الأحلاف الودية مع مدن ما وراء الدجلة الشمالي مثل : مدينة (حازوان) ومدينة (عرار) ومدينة (كاكميوم) ومدينة (حمازي) وبالرغم من أن هذه المدن لم تكتشف أماكنها إلا أن أغلب الباحثين يرجحون وقوعها في مكان ما إلى الشمال الشرقي من نهر الدجلة .

ونستفيد من ترجمة بعض النصوص المسمارية ، إلى وجود علاقة جيدة كانت تربط مدينة (كيش) العاصمة الثانية للاكاديين ، مع إبـلا ، حيث قام الملك الابلائي (أبي ـ زكير) بزيارتها ، وكان كتبة من (كيش) يعملون في إبـلا ، وكان المواطنون في إبـلا يزورون (كيش) أو يقطنون فيها . . كما أن كيش ، كانت تشترك في تقديم القرابين في معابد إبـلا ، وتشير كل هذه المعلومات إلى وجود علاقة متوازية وطيبة بين إبـلا ، وعاصمة الآكاديين[10] .

9 ـ المصدر السابق (ص 28) .

10 ـ ابلا ، علاء ، الصخرة البيضاء ، قاسم طوير (ص 33) .

ومع ذلك من الصعوبة ـ حتى الآن ـ وضع نظرية متكاملة حول سعة رقعة إبــلا الجغرافية ، نظراً لعدم اكتمال المعلومات الأثرية ، ورغم ذلك فقد كشفت نصوص السجلات الملكية الابلائية بجلاء عن ثلاثة أشكال لطريقة حكم المناطق الجغرافية والاشراف الإداري عليها : يوضحها لنا «باولو ماتييه» على النحو التالي :

في مقدمة تلك الاشكال نذكر المدن التي تتبع مباشرة لابلا ، وكان يحكمها (الاوغولا) أي القاضي ، أو ابن الملك ، أو أحد وجهاء البلاط الملكي ، كما هو الحال بالنسبة لمدينة (آرمي) التي يبدو انها كانت إحدى كبريات المراكز في امبراطورية إبــلا ، ويمكن أن تكون المقصودة في كتابات الملك الآكادي (نارام ـ سن) الذي يفتخر بأنه فتح إبــلا وارمانوم (حلب القديمة) .

وتأتي في الدرجة الثانية ، المدن الغربية التي تم اخضاعها في أعقاب حملة عسكرية ، وفي هذا الوضع ، يتسلم أحد وجهاء إبــلا سدّة الحكم في المدينة المغلوبة ، مثلما حدث بالنسبة لمدينة ماري ، وقد وجد في نصوص إبــلا ما يخبرنا عن الحملة العسكرية التي قامت بها إبــلا ضد ماري ، من خلال تقرير القائد (إنّا ـ دجن) إلى مليكه في إبــلا ، حاملاً إليه بشائر النصر المبين ، حيث يقول له :

«إنّادجن ، ملك ماري إلى ملك إبــلا ، حاصرت مدينة إبورد ، ومدينة إيجي ، التابعتين لدولة بلاد إبــلا ، ودحرت ملك ماري ، وتركت بلاد لبنان الجبلية حطاماً ورماداً ، ثم حاصرت مدينة تيبالات ومدينة ألوى ، ودحرت ملك ماري ، وتركت بلاد انجاعي الجبلية رماداً وحطاماً ، ثم حاصرت دولة راعياك وايروم وأشلد وبادون ودحرت ملك ماري ، وتركت حدود (الاسم ناقص) في منطقة ناحال رماداً وحطاماً ، ثم حاصرت مدينة ايمار ، ومدينة لالانيوم وقناة إبــلا ، ودحرت قائد ماري العسكري المدعو (اشتوب ـ شار) وتركت مدينة ايمار ومدينة لالانيوم رماداً أو حطاماً ، ثم قضيت على مدينة جلالابيغي ، ومدينة (........) وعلى القناة ، ثم دحرت ملك ماري وآبارسال ، في مدينة زاهيران ، وأقمت سبعة أهرامات من الرماد والحطام ، وحاصرت (ايبلول ـ ايل) ملك ماري ومدينة شادا ، ومدينة الداليعي ومدينة اريسوم في دولة بورمان التابعة لبلاد سجوروم ، ودحرت (إيبلول ـ ايل) وتركت تلك المدن حطاماً ورماداً ، ثم حاصرت مدينة شران ومدينة داميوم ، ودحرت (إيبلول ـ ايل) ملك ماري ، وأقمت هرمين من الرماد والحطام ، وفي مدينة ميرات ، في قلعة حازوان هرب من أمامي (إيبلول ـ ايل) ملك ماري ، واستلمت جزية إبــلا الموجودة في مدينة (نه ـ ما) . أما مدينة ايمار فقد دحرتها وتركتها رماداً وحطاماً ، وفي بلاد كنعان دحرت (إيبلول ـ ايل) ملك ماري ، في منطقة نحال ، وفي مدينة نوبات ، وفي مدينة شاوا التابعة لدولة جاسور ، وأقمت سبعة اهرامات من الحطام والرماد ، كذلك دحرت (ايبلول ـ ايل) ملك ماري في مدينة براما للمرة الثانية ، وفي مدينة أيورد ، وفي مدينة تيبالات التابعة لدولة بيلان .... أنا (إنّا ـ دجن) سيد ماري ، تركت تلك البلاد ، رماداً وحطاماً ، ثم ربطت الصولجان ، وانغمست في الهيئة الملكية[11] . ويبدو أن (أنّا ـ دجن) كان منزعجاً من ملك ماري (ايبلول ـ ايل) لذلك نراه في تقريره يكرر كثيراً خبر التصدي له والقيام بدحر جيوشه ، وفي ذلك شيء من الطرافة ؟! ....

11 ـ مجلة اونيس انتيكوس الصادرة عن معهد الشرق ، مركز آثار وتاريخ فنون الشرق الأوسط ، المجلد (19) الجزء (4) لعام 1980 (ص 231 - 245) ترجمة الاستاذ قاسم طوير ، مصدر سابق (ص 118 - 119) .

قطع من رقائق ذهبية إبــلائية ، اكتشفت في القصر الملكي (ج) .

ونظراً لأهمية هذا التقرير العسكرية والسياسية فقد قام أكثر من عالم لغوي بدراسته ، ويرى العالم «ادزاد» أن هذا التقرير يعيد إلى الأذهان الانتصارات العسكرية مع تداعي الخواطر في كثرة ذكر الاسماء ، ويبدو أن لهذا أهمية في العلاقات المتبادلة بين ماري و إبــلا .

أما في الدرجة الثالثة فتأتي المدن المستقلة ظاهرياً ، ويحكمها ملك من أهلها لكنها ترتبط بمعاهدة سياسية مع إبــلا ، كما هي الحال بالنسبة لمدينة آشور وحماة (؟) ، أو باتفاقية تقوم على دفع الجزية لابلا ، كما تحقق من ذلك بالنسبة لآكاد ، وكانيش .... ويمكننا أن نأخذ فكرة عن تلك المعاهدات التي تربط إبــلا بتلك المدن من خلال «ما يسمى بالمعاهدة بين إبــلا وآشور» التي تفيد ترجمتها :

«إذا اعتدى أحد على أبارسال فإن إبــلا ستتكفل (ستحمي ؟) غلال محاصيل حقول أبارسال ، أو إذا اعتدى أحد على أبارسال فإن أبارسال ستقتله . وإذا اعتدى أحد على إبــلا فإن أبارسال ستتكفل غلال حقول إبــلا ، وإذا اعتدى أحد على إبــلا فإن إبــلا ستقتله» .

لقد جرى خلاف بين علماء اللغات القديمة حول ترجمة هذا النص ، وخاصة المدينة التي وقعت مع إبــلا تلك المعاهدة ، «فجيوفاني بتيناتو» قرأ كلمة (آشور) اسماً لتلك المدينة ، وادموندسولبرجيه دقق النص مرة ثانية ، وقال بأن الكلمة لا يمكن أن تكون (آشور) بل (أبارسال) لكن لم يسمع أحد باسم هذه المدينة ، إذ لم يرد لها ذكر في أي نص مسماري قديم ، أو متأخر في أي موقع أثري خارج

إبـــلا ، ومع هذا يرجح الباحثون أن تكون هذه المدينة واقعة في مكان ما على الفرات لأن المعاهدة تحرم (ابارسال) ممارسة التجارة النهرية ، وتجعلها حكراً بيد إبـــلا[12] .

وفي نصوص سجلات القصر الملكي في إبـــلا عثر المنقبون أيضاً على رسالة دبلوماسية من نوع آخر ، بين ملك إبـــلا (اركب دامو) مرسلة إلى (زيزي) ملك خمازي ، وتفصح هذه الرسالة بصراحة عن تحالف بين إبـــلا وخمازي . ولما كانت مملكة خمازي حسب تقدير علماء الآثار تقع في مكان ما من شمال ايران أو إلى الشرق من نهر دجلة ، فإن ما يثير الاعجاب أن تقيم إبـــلا علاقات دبلوماسية مع مملكة نائية عنها ، وهذا يؤكد بما لا يقبل الشك أن إبـــلا كانت امبراطورية كبرى مترامية الاطراف .... واعادة ترتيب النص (الرسالة) يفيد بما يلي :

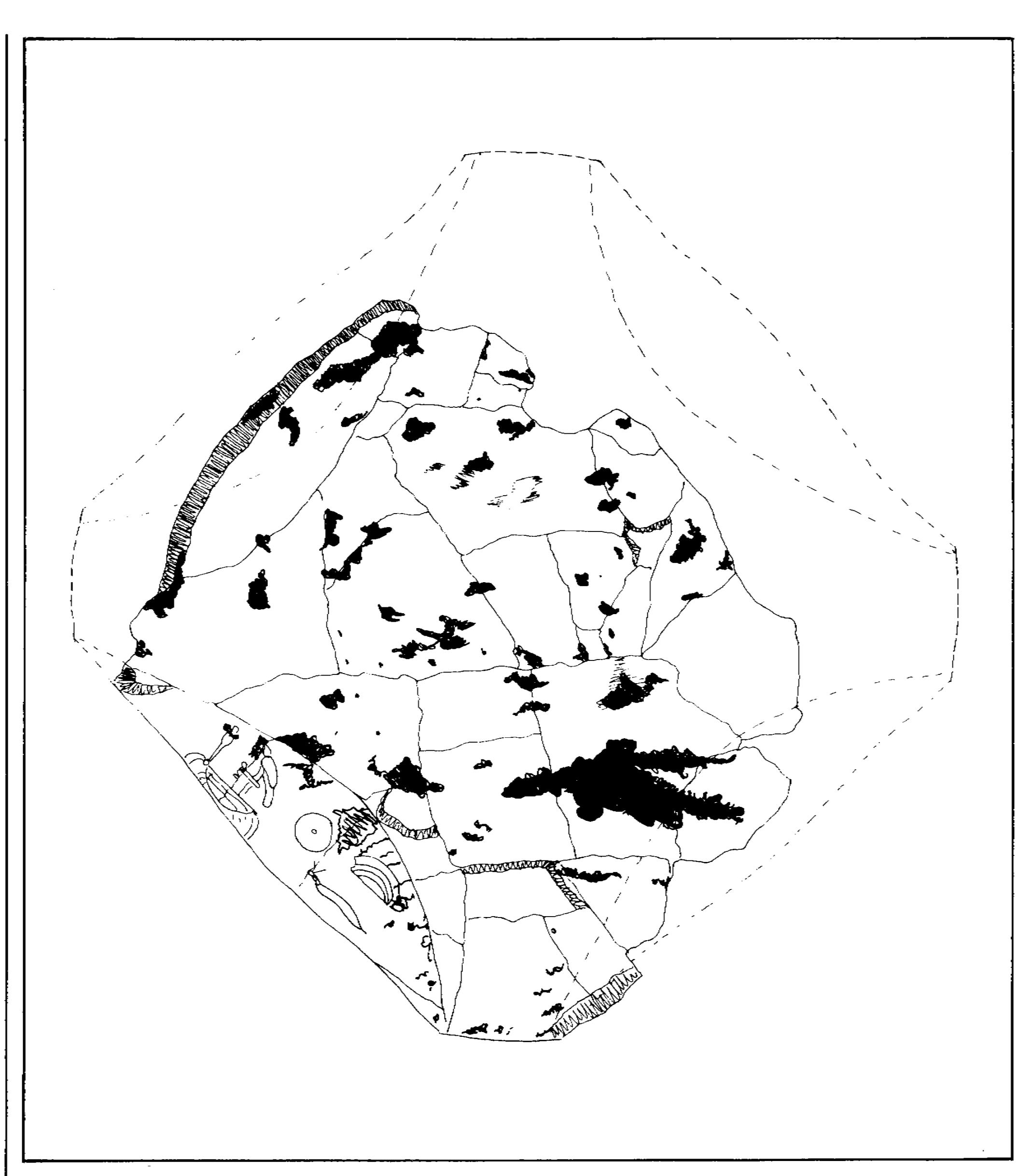
«من ايبو- بوناقصر الملك إلى الرسول ،
اسمع انما انت اخي ، وأنا أخوك ،
أرغب من أخي أن ينصت إلى ما أقوله ،
إن الرغبة التي اتفوه بها هي أن ارجوك بإرسال
جنود ابرار .
فأنت حقاً أخي ، وأنا أيضاً أخوك ،
فأنا ايبو بو أعطيت عشر قطع أثاث من الخشب
وقطعتين من الاثاث الفاخر لرسول اركب- دامو
ملك مدينة إبـــلا ، وأخ زيزي ملك مدينة خمازي .
وزيزي ملك خمازي هو أخ اركب دامو ملك مدينة إبـــلا
واخ زيزي ملك مدينة خمازي ....
انما كتب (هذه الرسالة) الكاتب تيرا- ايل ، وأعطاها لرسول زيزي» .

وفي هذه الرسالة ما يشير إلى أن ناظر قصر إبـــلا قد طلب من مبعوث مملكة خمازي أن يرسل له جنوداً ابراراً ، وهذا يدفع للتفكير بأن إبـــلا كانت تستخدم الجنود المرتزقة في تشكيل جيوشها ، أو أن معاهدات التحالف كانت تنص على إرسال الجنود للخدمة في بلاط إبـــلا ، وهذا أيضاً يمكن أن يدل على الصفة المسالمة لأهالي إبـــلا الذين وهبوا أنفسهم للتجارة الدولية في كل أنحاء العالم المعروف آنذاك .... كما أن ارسال ملك إبـــلا هدايا تتألف من قطع الاثاث الخشبي يؤكد على المستوى الصناعي العالي الذي كانت تتمتع به حضارة إبـــلا[13] ، لاسيا وان هذه الحقيقة لا تقتصر على الدليل الوثائقي بل على دليل ملموس اكتشف بكثرة في إبـــلا ، اثناء تنقيبات البعثة الأثرية الايطالية في الموقع خلال عدة مواسم .

في مكتشفات إبـــلا ، أدلة كثيرة ومتنوعة تثبت على أن علاقاتها الاقتصادية كانت أوسع بكثير من رقعة سيادتها السياسية (على امتدادها) ، وهذه المكتشفات مكنت علماء الآثار من رسم صورة معقولة إلى حد ما لعلاقات إبـــلا الخارجية في المجالات السياسية والاقتصادية والحضارية المباشرة ، وغير المباشرة ، وتتمثل العلاقات المباشرة في القطع الأثرية المكتشفة في انقاض القصر الملكي (ج) والتي تطرقنا إليها في مواضيع سابقة .

12 ـ قاسم طوير ، المصدر السابق (ص 34) و (132) .

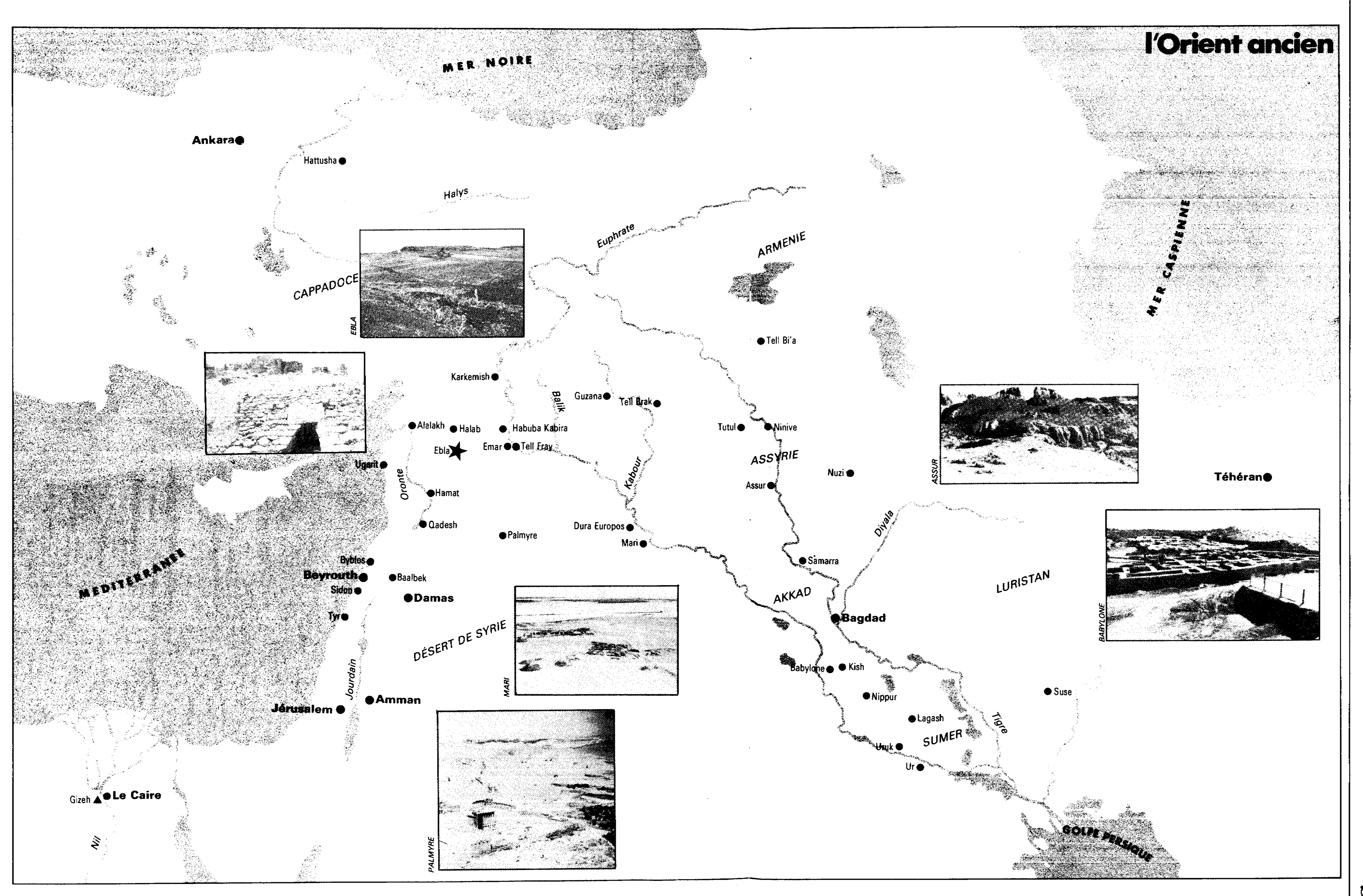
13 ـ المصدر السابق (ص 150 - 147 قراءة ، بقلم جيوفاني بتيناتو .



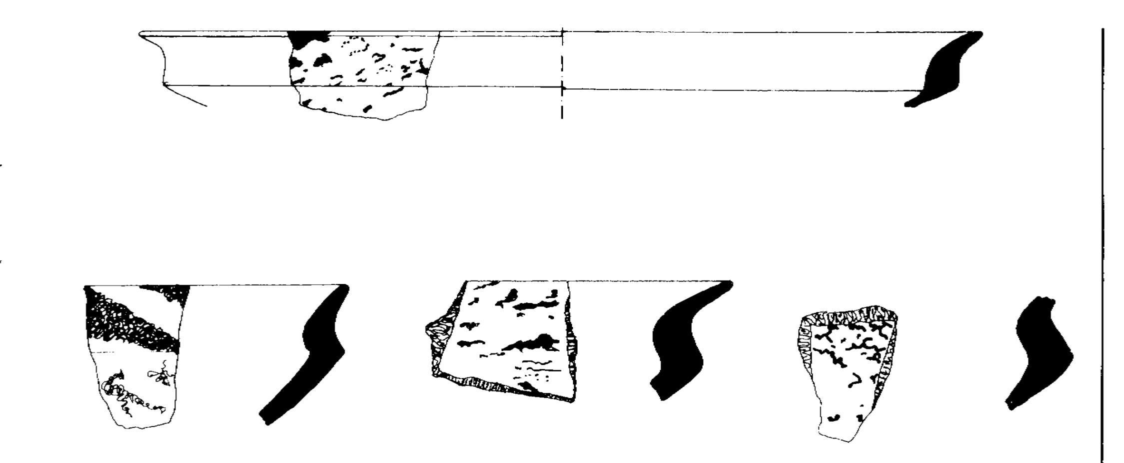
رسم شمعدان الفرعون خفرع .

أما العلاقات غير المباشرة فتتجلى في الأعمال الفنية التي عثرت عليها البعثة الأثرية وأبانت دراستها على وجود تأثيرات لمدارس فنية معروفة في بلدان أخرى ، لا بد أن إبـــلا كانت على علاقات معها .

وقد زودتنا النصوص المسمارية ذات المضمون المعجمي واللغوي بمعلومات ذات أهمية كبيرة لأنها احتوت على قوائم بأسماء مدن نائية وذات شأن . ومع انها لا تفصح عن وجود علاقات تجارية أو سياسية بين تلك المدن وامبراطورية إبـــلا ، فإنها تقدم الدليل على أن أهالي إبـــلا آنذاك كانوا يعرفون تلك المدن على أقل تقدير ، ومن جملة تلك المواقع التي تم التأكد من اسمائها ، أسماء موانىء على الساحل السوري مثل : أوغاريت وأرواد وربما بيروت أيضاً ، فضلاً عن أسماء مدن كبرى في بلاد آكاد وبلاد سومر مثل (إكشاك) و (لاغاش) و (امّا) و (جيرسو) و (نيبور) و (شوروباك) و (أدب) و (أوروك) ، إلى جانب أسماء مدن في بلاد أكثر بعداً مثل (عيلام) في جنوب غرب ايران ، و (ديلمون) في البحرين الحالية .



خريطة توضيحية تبين علاقات إبــلا التجارية والاقتصادية مع دول الشرق القديم.



إن مجرد ذكر أسماء حواضر كبرى واقعة في بلاد سومر في الرقم المعجمية المخصصة لتعليم الكتابة المسمارية في إبـــلا ، لهو في غاية الأهمية ، لاسيما وان العلاقات الاقتصادية الموثقة في سجلات إبـــلا تأتي كثيراً على ذكر مدينة (كيش) في بلاد آكاد ، لكنها لا تأتي على ذكر أي مدينة من مدن الجنوب الرافدي ، باستثناء مدينة (أدب) التي لا بد أنها كانت مركزاً هاماً على طريق المواصلات مع الهضبة الايرانية[14] .

14 ـ علاقات ابلا الاقتصادية والسياسية ، باولوماتييه ، مصدر سابق (ص 14) .

وفي تقييم للأثر الناجم لتلك العلاقات الدولية التي أقامتها امبراطورية إبـــلا على نشوء وتطور حضارتها ، يقول باولوماتييه :

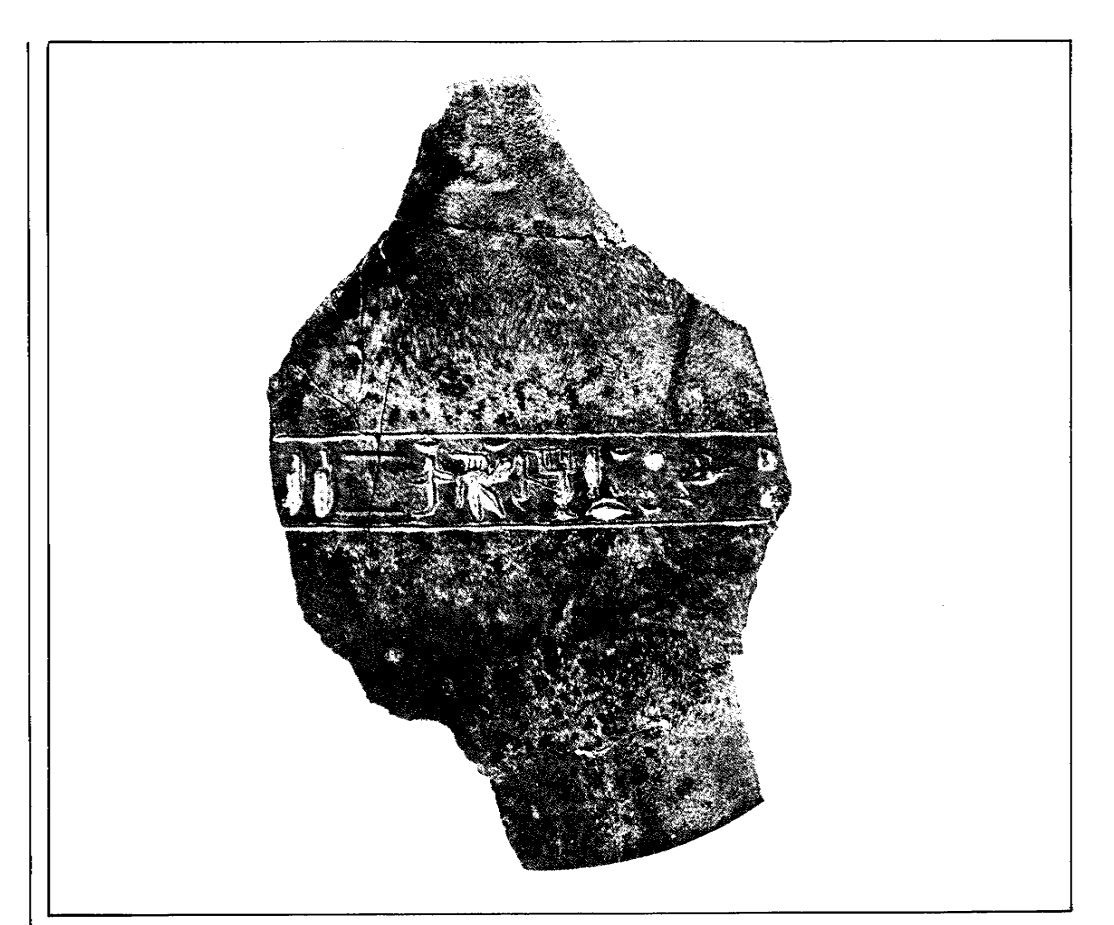
في الحقيقة لا يوجد شك بأن ينبوع الحضارة التي ازدهرت في إبـــلا كان يتغذى بالتأثيرات القادمة من المناطق الحضارية التي كانت إبـــلا تقيم معها أوثق العلاقات السياسية ، وأمتن العرى الثقافية خلال الفترة التي دونت فيها السجلات المسمارية المكتشفة في القصر (ج) لا سيما وأننا نستشف من تلك الوثائق أن توجهات إبـــلا السياسية والاقتصادية قبيل دمارها بين 2300 - 2250 قبل الميلاد ، كانت شرقية أكثر منها غربية . . . .

إن علاقات إبـــلا ببلاد جنوب ما بين النهرين ، مرّت بمراحل متنوعة ، ومن الممكن أن نتصور معالمها الرئيسية في عدة نقاط . . . .

في المرحلة الاولى، وبالتحديد فجر التاريخ 3500 - 3000قبل الميلاد، قام السومريون بتأسيس ممالك وحواضر على طول الفرات الاوسط والاعلى، وعلى طول نهر الدجلة الاعلى، وقد أكدت التنقيبات الاثرية ذلك في تل قناص وتل حبوبة وتل عارودة، ومناطق سهل العمق ومنطقة انطاكية وحماة، ومن المرجح جدا ان تكون المدن الاولى قد نشأت في منطقة تل مرديخ (إبـــلا) وبالذات في منطقة بحيرة المتخ التي وصلها التأثير السومري في فترة فجر التاريخ حسب قول باولو ماتييه[15] .

15 ـ المصدر السابق (ص 19 - 18) .

في المرحلة الثانية 3000 - 2400 قبل الميلاد ، كانت الاتصالات وثيقة بين إبـــلا ومنطقة جنوب بلاد ما بين النهرين ، لكنها كانت مقتصرة على بلاد آكاد الشمالية ، وليس على بلاد سومر الجنوبية ، وفي هذه المرحلة بالإضافة إلى موضوع التأثر ، بدأت حضارة إبـــلا تكوّن شخصيتها وتأخذ أبعادها المستقلة ، وتصبح الوجه المميز للحضارة السورية في ذلك العصر . فضلاً عن ظهور



بنيان تأسيسي سوري الطابع ، وتطلعات دينية مرتبطة بتاريخ بلاد الشام المتأخر ، وفي هذه المرحلة بالذات ترسخت أسس متميزة أصبحت بعدئذٍ منطلقاً للتطور الحضاري المتعاقب في بلاد الشام .

وتتجلى المرحلة الثالثة في الفترة التي دونت خلالها السجلات الملكية المكتشفة في القصر (ج) ، فالعلاقات بين إبـــلا وجنوب بلاد الرافدين ، ظلت قائمة ، لكن الاستقلال الحضاري الذاتي لابلا تكامل كلياً ، ويبدو أن العلاقات وقتئذٍ قد اقتصرت على المناطق المزدهرة في شمال بلاد بابل ، وعلى مدن معينة مثل : (كيش) و (اكشاك) وآكاد رغم غياب اسمها في وثائق إبـــلا ، وقد اتصفت العلاقات في هذه المرحلة بين إبـــلا وآكاد بطابع المساواة والمنافسة .

وفي المرحلة الواقعة بين 2300 - 2250 قبل الميلاد نتجت عن تلك المعادلة ، مشاكل حاسمة ، تجلت في اضطرار إبـــلا إلى دفع الجزية إلى صارغون الآكادي ، وفيما بعد إلى دمار إبـــلا على يد نارام ـ سن الآكادي ، وواضح أن الطابع الاقتصادي قد لعب الدور الاساسي في كل تلك العلاقات ، فابلا كانت تسيطر على سورية الداخلية ، وتتحكم بمصادر الخشب في جبال سورية الغربية من الامانوس وجبال الساحل السوري حتى جبال لبنان ، وبمصادر المعادن كالنحاس والفضة والذهب في مناطق مختلفة من جبال طوروس . . . .

وكانت المعادن والاخشاب من المواد الحيوية والأساسية في تطور التقنية في الألف الثالث قبل الميلاد ، وفي التجديدات التكنولوجية لذلك الزمان ، وبالذات تكنولوجيا البرونز . . . . ومع ذروة التوسع الاقتصادي والسياسي الذي حققته إبـــلا نحو الغرب ونحو مراكز الشرق . . أدرك ملوك



آكاد أنه لن يمكن تحرير الطرق التجارية على طول ضفاف الدجلة والفرات وغيرهما . . إلا بإرسال الحملات العسكرية المباشرة لوقف ازدهار إبــلا وسيطرتها الاقتصادية والتجارية والسياسية[16] . . . .

16 ـ المصدر السابق (ص 19) .

تذكر النصوص المسمارية التي خلفها صارغون الآكادي نحو 2300 قبل الميلاد ، أن إبــلا هي أقصى مدينة وصلتها جيوشه ، وتغلب عليها في حملته الرابعة والثلاثين ، ويتباهى صارغون بأنه حكم الأراضي الممتدة بين ماري على الفرات وعيلام حكماً مباشراً ، وأن (انليل) كبير آلهة (نيبور) قد وهبه حق الهيمنة على البلاد الواقعة بين الخليج العربي (البحر الأسفل) والبحر المتوسط (البحر الاعلى) ، وان الإله دجن (داغان) كبير آلهة البلاد الواقعة إلى الغرب من الفرات ، قد وهبه «البلاد العليا» من ماري إلى توتول (تل البيعة) إلى إبــلا ، وقد استطاع أن يغسل يديه من مياه البحر المتوسط .

وبعد أربعين سنة من ذلك التاريخ تقريباً ، يبتهل ابن اخيه أو حفيده على ما يعتقد (نارام ـ سن) إلى الإله دجن (داغان) في توتول (تل البيعة ـ قرب مدينة الرقة) ليفتح له الطريق إلى المناطق الشمالية الغربية ، ويستلم القيادة من الإله (نرجال) إله الحرب والعالم السفلي في حملته العسكرية ، فقام بتدمير البلاد الواقعة إلى الشمال من بلاد الرافدين وسورية الشمالية ، ويتباهى في نقوشه بأنه الأول الذي دمر إبــلا وأرمان (حلب القديمة) منذ قيام الخليقة ، وهكذا نرى أن العلاقات التجارية التي كانت سبباً في أعمار إبــلا وازدهار امبراطوريتها ، كانت نفسها السبب في خرابها ودمارها لأول مرة في عام 2250 قبل الميلاد تقريباً . . . . ومع أن إبــلا عادت وازدهرت بعد ذلك في الفترة الواقعة بين 1800 - 1600 قبل الميلاد إلا أنها لم تصل إلى مستوى زعامتها السابقة ، وتقلدت يمحاض (حلب) زعامة سورية الشمالية بدلاً عنها .

لقد أطلق على هذه الفترة من حياة إبــلا ، اسم فترة الازدهار الثانية ، وهي الفترة التي يطلق عليها أيضاً اسم العصر السوري القديم ، أو العصر الآموري ، الذي انتهى في نحو 1600 قبل الميلاد على يد ملكي الدولة الحثية القديمة ، حاتوشيلي الأول ومورشيلي الأول ، حيث قادا جيوشهما من الاناضول باتجاه سورية الشمالية ، واستوليا على مدن آلالاخ (تل عطشانة) واورشو و إبــلا ، وفيما بعد على يمحاض (حلب القديمة) ، وفي نهاية المطاف احتل مورشيلي الأول ، بابل حيث كان يحكمها آخر ملك من سلالة حمورابي .





تماثيل ملكية من البازلت مخبأة في حفرة داخل معبد حدد الملاصق للقصر الملكي الشمالي يعود تاريخها الى 1825 - 1750 ق.م.

الملف العاشر

المؤلف يحاور البروفيسور باولو ماتييه

بمناسبة مرور خمس وعشرون عاما على اكتشافه العظيم